أولا : الجذور العائلية و التكوين الروحي لاحمد باي

هو الحاج أحمد بن محمّد الشريف بن الباي أحمد القلي ولد عام 1200 هـ، الموافق لعام 1786م، كرغلي النسب، من أب تركي وأم جزائرية،كان أبوه موظفا إداريا في حكومة الدّاي، وأمه رقية ابنة الحاج ابن قانة رأس إحدى العائلات الصحراوية الكبيرة، وشيخ من ابرز شيوخها(شيخ العرب) وقد كان لهذه العائلة مكانة وسلطة على منطقة بسكرة وضواحيها، حتى اشتهر أحمد باي بنسب أمه، حيث كان يدعى باسم الحاج أحمد بن الحاجة شريفة ،اما جده احمد القلي فكان بايا على قسنطينة 1756 – 1771.

نشأ أحمد باي عند أخواله، فتعلم الفروسية والقتال، وشبّ على حياة البداوة، فصار رجلا شجاعا حاسما، لا يعرف التردد عند الفصل في القضايا، كما أنه كان مشبعا بثقافة عصره، فمزج بين الأدب واللسان العربي، والحكم والسلطان التركي، كما أنه استطاع أن يؤدي فريضة الحج، قبل أن يصير بايا، وحينها بقي في المشرق أكثر من عام، يدرس ويتعلم ويقيم العلاقات، فتعرف على الحياة الفكرية والسياسية في الحجاز ومصر واسطنبول، واجتمع مع والي مصر محمد علي، وأبنائه إبراهيم وطوسون وعباس.

لقد كان لشخصية أحمد باي القويّة تأثير إيجابي في كسب ثقة الأهالي، وكسب ثقة الحكومة العثمانية بالجزائر، لذلك، عملت على تعيينه في مناصب عدة فلم يتجاوز الثامنة عشر من عمره حتى عيّنه أحد البايات كقائدٍ على قبائل العواسي ، وبعد أن أصبح حسين باشا حاكما في عام 1818 عينه نائبا لباي قسنطينة أحمد المملوك ،فبقي في هذا المنصب حتى عا 1821 ، ثم عُزل منه مدّة عامين ونصف، بسبب اتصالاته المريبة مع باي تونس، فنُفي إلى ملیانة،حيث كان من يعزل من منصبه يذهب الى الغرب او الولايات التالية (ملیانة،العاصمة،البليدة، الخ). بعيدا عن المؤامرات حتى يصفو الجو و يأتي من يقربه اليه.

بعدها، سُمح لاحمد باي بأن يقيم بالبليدة عاما ونصف ثم بالعاصمة، وكل ذلك تحت إمرة قائد الجيش الآغا يحي عام 1825،فلما اعجب به سعى له عند الداي حسين،فعى عنه و عينه في السنة الموالية حاكما على بايلك الشرق.

إثر تعيين أحمد باي حاكما عام 1826 م، شرع في تنظيم الأمور والقضاء على الفوضى ، أظهر من خلالها دهاءه السياسي والعسكري، ومقدرته الفائقة في القيادة.

ثانيا: الاستراتيجية العسكرية لأحمد باي

1 :استراتيجية أحمد باي في صد الحملة الفرنسية

في عام 1830 ذهب الحاج أحمد باي إلى الجزائر العاصمة لاداء الدنوش أو الزيارة الاجبارية التي يؤديها إلى الباشا جميع البايات مرة كل ثالث سنوات، وبعد وصوله إلى العاصمة، اعلمه حسين باشا بتفاصيل الحملة الفرنسية (بعد أن تأكدت الحملة الفرنسية على الجزائر، و وصولها إلى ميناء سيدي فرج) ، وأمره بتحصين ميناء عنابة، وطلب منه أن يستعد لملاقاة الفرنسيين، وأن يلتحق فورا بسيدي فرج لحضور الاجتماع الذي سيعقد هناك لمناقشة وسائل المقاومة والدفاع ضد الحملة الفرنسية عن الجزائر، وقد حضر الاجتماع إلى جانب أحمد باي الآغا ابراهيم(قائد الجيش وصهر الباشا) وأيضا باي التيطري مصطفى بومزراق، وخليفة باي وهران، وخوجة الخيل.

حاول أحمد باي توظيف حنكته السياسية والعسكرية باقتراح بعض الخطط الحربية التي من شأنها أن تصد العدوان، إلا أن هذه الخطط لم تلق القبول من طرف الآغا إبراهيم الذي كان لا يتقبل غير رأيه ، فلم يكن يعرف الشيء الكثير عن التكتيك العسكري عكس سابقه الآغا يحي الذي شغل هذا المنصب لمدة اثني عشرة سنة، فلو كان على رأس الجيوش الجزائرية، لسارت الامور على أحسن ما يرام،لانه كسب تجربة في القتال برا وبحرا، إضافة إلى شجاعته في جميع الحالات.

في البداية شارك أحمد باي في معركة سطاوالي في 19 جوان 1830م وهو فاقد الامل في دحر المحتل بسبب سوء توظيف الامكانيات (بسبب خطة الآغا ابراهيم سبق الاشارة الى أن خطة احمد باي لم تأخذ بعين الاعتبار)، وقد فقد حوالي 200 من رجاله، و بعد استيلاء الفرنسيين على قلعة موالي حسن بالجزائر العاصمة، انسحب الى وادي القلعة ثم إلى عين (الرباط) مصطفى باشا حاليا، ليعود إلى قسنطينة رفقة فرسانه، والتحق به حوالي 1600 من أهل مدينة الجزائر فارين من الجيش الفرنسي رجالا و نساء، وفي وادي الزيتون، اتصل به مبعوث دي بورمونت " Bourmont "قائد الحملة الفرنسية عارضا عليه الاستسلام مقابل ابقائه في منصبه، ويدفع ضريبة سنوية لفرنسا، فكان رده أن الامر بيد أهل الاقليم الذي يحكمه. لان سلطته مستمدة من الشعب و من السلطان العثماني، فجمع ديوانه واستشاره، فكان رد الديوان الرفض القاطع. واصل أحمد باي سيره نحو قسنطينة التي وصل ضاحيتها (الحامة) بعد اثنين وعشرين يوما وكان قد توقف في ضاحية المدينة بعد أن علم أن هناك انقلاب دبّر ضده، تزعمه عدد من ضباط اليولداش، وعينوا بدله بايا جديدا يدعى " حمود بن شاكر"، و قد تمكن في

نهاية المطاف من افشال هذه المحاولة، ودخل إلى المدينة، وقد نفّذ حكم الاعدام في كل المتآمرين عليه، وحمل منذئذ كرها شديدا ضد الاتراك .

لقد واجه أحمد باي خصوما في عدة جبهات :

جبهة ضد فرنسا : منذ احتلالها للعاصمة، و لأهم موانئ إقليم قسنطينة، ومنها عنابة عام 1832 و بجاية عام 1833م .

جبهة ضد تونس: فقد وقع الجنرال " كلوزيل " معاهدة مع تونس في 18 أكتوبر ،1830 يصبح بمقتضاه سي مصطفى أخو باي تونس عندئذ بايا على قسنطينة خلفا للحاج أحمد باي، كما وقع معاهدة أخرى مع خيرالدين ممثل آخر عن باي تونس لحكم إقليم وهران.

جبهة ضد ابراهيم الباي السابق على بايلك قسنطينة الذي أعلن نفسه بايا على عنابة، ويطالب بعودته إلى قسنطينة .

جبهة ضد مصطفى بومزراق باي التيطري: الذي أعلن نفسه " باشا الجزائر "خلفا للداي حسين، وطلب من الحاج أحمد باي أن يعترف به .

جبهة ضد فرحات بن سعيد شيخ العرب السابق على الصحراء الشرقية بالزيبان الذي عزله الحاج أحمد باي، وعين بدله خاله بوعزيز بن قانة، فانسحب فرحات بن سعيد إلى أولاد جلال ، حيث أخذ يوجه من هناك هجماته ضد الحاج أحمد.

2:استراتيجية أحمد باي في المقاومة:

تضمنت هذه الاستراتيجية عنصرين أساسيين، العنصر الأول هو كيفية الاستعداد للمقاومة، أما العنصر الثاني فيتعلق بمرحلة المقاومة.

أ –كيفية استعداد أحمد باي للمقاومة:

- ❖ إحاطة نفسه برجال ثقة و نفوذ في بايلك الشرق و تمتين الصالات بينه وبين شيوخ القبائل
- ❖ اعتماد مبدأ استشارة ديوانه المكون من العيان و الشيوخ والعودة في أمهات القضايا إلى السلطان العثماني.
- ❖ ملء الفراغ الذي أحدثه استسلام الداي و تآمر باي تونس مع الفرنسيين.
- ❖ فتح باب الانخراط في الجندية لكل أفراد الشعب استعدادا للمعركة الفاصلة.
- ❖ تحصين مدينة قسنطينة ببناء الخنادق و الثكنات.
- ❖ تدارك أحمد باي الامر بعد سقوط عنابة عام 1832 و بجاية عام ،1833 وعمل على حصار العدو داخل هاتين المدينتين.

ب – مراحل مقاومة أحمد باي:

عرفت مقاومة أحمد باي مرحلتين هامتين، المرحلة الأولى **هي مرحلة القوة والانتصار**، أما المرحلة الثانية فهي **مرحلة الضعف والاستسلام**.

❖ **مرحلة القوة والانتصار (1830 /1836)**

بعد استيلاء القوات الفرنسية على ميناء عنابة في عام 1832 م، حاول خليفة أحمد باي علي بن عيسى ، استرداد عنابة في جوان 1833 م، إلا أنه فشل في ذلك، ثم قامت القوات الفرنسية بعد مرور عام، باحتلال مدينة بجاية في 29 سبتمبر 1833 م، لما علم أحمد باي بخروج القوات الفرنسية من عنابة في 08 نوفمبر 1836 م لاحتلال مدينة قسنطينة، بقوة تضم 8700 رجل، قام بتحصين مدينة قسنطينة من الداخل، بقوة قدرها 1000 رجل وثلاثين مدافعا، تحت قيادة خليفته بن عيسى وعلي بن البجاوي، وجهّز قوة أخرى، قوامها 5000 فارس و 1500 مشاة لضرب القوات الفرنسية خارج المدينة وعرقلة تقدمها، وكان هو من تكلف بهذه المهمة. أثناء وصول الحملة الفرنسية إلى قسنطينة في 21 نوفمبر 1836 م، شرع الجيش الفرنسي في ضرب المدينة ومحاصرتها لكنّ أحمد باي وقواته لم يستسلموا للحصار، ودافعوا عن المدينة بكل شجاعة ، إلى أن أرغموا الجيش الفرنسي بالارتحال في اليوم الثالث.

❖ **مرحلة الضعف والاستسلام (1837/ 1848)**

بعد الانتصار الذي حققه أحمد باي، حرص الأهالي على مراقبة الوضع وعلى بقاء فتيل المدافع مشتعلا، وتهيأ الجميع للمقاومة، وأمر أحمد الباي بأن تُهدم مختلف الأبنية التي هي خارج أسوار المدينة، وحرص على أن تبقى ثروات السكان داخل المدينة، حتى لا يتخاذلوا في الدفاع عنها لقد أيقن أحمد باي بأن الفرنسيين لن يتوانوا لحظة واحدة، لاستدراك الهزيمة التي لحقت بهم، وبناءً على ذلك، أخذ كل الاحتياطات اللازمة لمواجهة أي حملة ثانية محتملة، ومن جملة هذه الاحتياطات، أن أمر بإصلاح عربات المدافع، وأعاد تقوية الحصون القديمة، وشيّد حصونا جديدة، وحصّن مدينة قسنطينة بشكل عام ، ورمّم الحواجز وحفر الخنادق، حتى تكون هناك سهولة في غلق شوارع المدينة، ويصعب على العدو دخولها. على إثر الهزيمة التي تلقتها القوات الفرنسية على يد أحمد باي، قامت الحكومة الفرنسية في 13 يناير 1837 م بتعيين الجنرال دامريمون، خلفا للجنرال كلوزيل وما إن تم تعيين الجنرال دامريمون حتى شرع في التفاوض مع أحمد باي على ضواحي عنابة و LA CALLE ، ومطالبا ب دفع إتاوة سنوية قدرها 100 ألف فرنك ،وبعد رفض أحمد باي لهذا الطلب، تلقى دامريمون إذنا بالزحف نحو مدينة قسنطينة.

في بداية أكتوبر سنة 1837 م شرع الجيش الفرنسي في حملته الثانية على مدينة قسنطينة، وكان متكونا من ثلاثين ألف مقاتل،وحاملا معه 36 مدفعا من العيار الثقيل وبعد أن واجههم أحمد ،باي في مجاز عمار(قرب قالمة)لم يستطع التغلب عليهم، عندئذٍ واصل الجيش الفرنسي زحفه نحو مدينة

قسنطينة، وحاصرها في 05 أكتوبر 1837 م، بتعداد 4.500 مقاتل، وأمطر أسوارها بالقنابل، ثم دخل مع الجزائريين في حرب شوارع يوم : الجمعة 13 أكتوبر 1837م، استشهد خلال هذه المواجهة مئات الجزائريين .وفقد الجيش الفرنسي المئات من الضباط والجنود الفرنسيين، لكن، رغم ذلك، سقطت المدينة على يد الجيش الفرنسي في 14 أكتوبر 1837 م وبتاريخ 15 رجب 1253 هـ، الموافق ليوم الأحد : 15أكتوبر 1837 م، بعث أحمد باي برسالة إلى الصدر الأعظم أحمد قبطان باشا، يعلم فيها الباب العالي، احتلال فرنسا لمدينة قسنطينة، طالبا المساعدة من السلطان العثماني محمود الثاني.

وبالرغم من ذلك، واصل احمد باي مع أتباعه التحريض على المقاومة ومقارعة العدو ما بين جبل أحمر خدو، والزيبان، و الاوراس، إلى أن نال منه المرض والتقدم في السن. ألقي عليه القبض بتاريخ 5 جوان 1848 حيث وضع تحت الاقامة الجبرية ببئر خادم، إلى أن توفي عام 1850 ودفن في مقبرة سيدي عبد الرحمن بمدينة الجزائر.